الملف الوثائقى

الجاليات وثورة ١٩١٩
الجالية الأرمنية

إعداد وتقديم
دكتور محمد رفعت الإمام
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
آداب دمنهور - جامعة الإسكندرية

تقديـــم

رغم مرور ما يناهز خمسة وثمانين عاماً على قيام ثورة ١٩١٩ ، ورغم كثرة الدراسات التى عالجتها ، إلا أن ثمة صفحات منها لاتزال غامضة ، إن لم تكن مجهولة ، مثل موقف الجاليات من فعاليات وتداعيات هذه الثورة . وجدير بالذكر أن الجاليات بجناحيها الغربى والشرقى (الطوائف الملية) شكلت آنذاك محوراً رئيسياً فى بنية المجتمع المصرى . بيد أن مواقف كل منها إزاء ثورة ١٩١٩ قد تباينت حسب توجهاتها ومصالحها . فعلى سبيل المثال ، بينما تعاطفت الجاليتان الفرنسية والإيطالية نحوها نظراً لعدائهما لبريطانيا أساساً ، استنكرتها الجالية الأمريكية ووصفتها بأنها «صبيانية فى بعض مظاهرها وخطيرة فى نواح أخرى» . أما الجالية اليونانية كثيرة العدد فى مصر ، فقد أبدت تعاطفها نحو بريطانيا مراراً وتكراراً خلال الثورة وأعربت عن احتقارها للمصريين . ومنذ بداية الثورة ، نصح الممثل اليونانى سيكوتوريس جاليته بالعمل مع السلطات البريطانية . ولهذا ، أطلق اليونانيون فى مرات عديدة النيران على المتظاهرين مما زاد فى كراهية المصريين لهم . كما وصل عشرون يونانياً آنذاك لإثارة الاضطرابات فى مصر[١].

بيد أن وضع الجالية الأرمنية وموقفها شطر ثورة ١٩١٩ جديران بالبحث والتنقيب عنهما . إذ أن الإنجليز نجحوا فى توظيف الأرمن بمثابة «مخلب قط» فى وجه الحركة الوطنية المصرية . وربما يكمن وراء هذا التوظيف تحديداً حقيقة انخفاض الرصيد الأرمنى فى العالم الإسلامى لحظتئذٍ إثر تأزم العلاقات الأرمنية - العثمانية وتظاهر بريطانيا بتبنى القضية الأرمنية . ولكن من المفارقات أن مصادر ثورة ١٩١٩ والدراسات التى تناولتها لم تتطرق إلى آليات تجنيد الإنجليز «الحالة الأرمنية» ضد القضية المصرية ، بل إن معظم هذه المصادر إن لم تغفل ذكر هذه المسألة ، فقد مرت عليها سريعاً .

وهنا ، تكمن أهمية الوثائق الأرمنية التى وإن كانت تعكس بوضوح الرؤية الأرمنية ، إلا أنها ضرورية لتركيب الإطار الحدثى وتفسيره . وفى هذا الصدد ، ثمة وثيقتان تناولتا وضع الأرمن وموقفهم أثناء ثورة ١٩١٩ . أولاهما ، التقرير الذى أعده باللغة الأرمنية توركوم كوشاجيان مطران أرمن مصر وتلاه على مجلس إدارة المطرانية فى ٩ مايو ١٩١٩ . وثانيتهما ، تقرير أعده باللغة الفرنسية «الاتحاد القومى الأرمنى» للتحقيق فى الهجوم الذى وقع ضد الأرمن إبان شهرىّ مارس وأبريل ١٩١٩ . والاتحاد القومى الأرمنى عبارة عن هيئة تكونت فى نهاية عام ١٩١٧ لتكون همزة الوصل بين أرمن مصر والوفد القومى الأرمنى بباريس المنوط به الدفاع عن القضية الأرمنية . ثم أُسندت إليه مهمة التحقيق فى أحداث ثورة ١٩١٩ . ويتكون التقرير الذى أعده من «٧٧» صفحة ، تنقسم إلى : الوقائع (٩ - ٢٠) ، الإطار القانونى (٢١ - ٣١) ، التحقيق فى مقتل «١٩» أرمنياً (٣٥ - ٥٦) و «٢٦» جريحاً (٥٧ - ٧٤) ، تقرير عن مخيم اللاجئين الأرمن بمصر الجديدة (٧٥ - ٧٧) . ونظراً لكبر هذا التقرير ، فسوف ننشر منه الجزء الخاص بالوقائع فقط . أما تقرير المطران ، فسوف ننشره بالكامل مترجماً إلى العربية . وسنحاول فى الصفحات التالية صياغة وضع الأرمن أثناء ثورة ١٩١٩ وموقفهم منها مع بيان أهمية الوثيقتين المنشورتين وتقييمهما .

عندما اندلعت الثورة المصرية فى ٩ مارس ١٩١٩ تُطالب بإلغاء الحماية البريطانية واستقلال مصر تحت شعار «مصر للمصريين» كانت نفسية الأرمن بمصر مزيجاً من عُقد مركبة متشابكة. فقد تكونت آنذاك «عقدة أرمنية» ضد الإسلام والمسلمين نجمت عن الأحداث الدموية التى أصابتهم على أيدى السلطات العثمانية من ناحية، وتصوير الاحتلال البريطانى للحركة الوطنية المصرية بأنها معادية للمسيحيين عموماً من ناحية أخرى . ولعل هذا يبدو بجلاء فى ثنايا الوثيقتين اللتين بصدد التقديم لهما . ففى أثناء فعاليات مؤتمر الصلح بباريس وشيوع أخبار اقتراب حل القضية الأرمنية - وهو ما لم يحدث -

تنامت فى العقل الجمعى الأرمنى فكرة تلوح بانتصارهم على المسلمين. وقد ران هذا الاعتقاد على المزاج الأرمنى العام فى مصر، وهو ما أكده المطران توركوم كوشاجيان فى تقريره عن أحداث ثورة ١٩١٩ قائلاً : «... إن الموقف المكفهر للمسلمين إزاء بوادر نجاح القضية الأرمنية يُثير هواجس كثيراً منا . ولكننا لا نستطيع سوى دعوة شعبنا إلى السكوت والحيطة». كما اعتقد الأرمن وقتذاك أن المصريين (المسلمين) امتداد طبيعى للأتراك ، ولذا، سوف يُناصرونهم على الأرمن . ويُؤكد هذا ما أورده «الاتحاد القومى الأرمنى» فى تقريره عن قتلى الأرمن فى أحداث ثورة ١٩١٩ : «... هل يجب علينا أيضاً أن نتحدث عن الطريقة الوحشية التى هوجم بها وقُتل معظم الضحايا؟. إن الأحداث التى وقعت إنما تُعبر بإخلاص عن التقاليد الأصيلة للأتراك والأكراد...».

فى إطار هذه النفسية، وتحت سيطرة تلك المعتقدات، تَخَوَّفَ الأرمن بشدة إثر قيام الثورة المصرية التى ربما تمسهم بالأذى على غرار الثورة التركية. وبات الأرمن متوجسين خيفة من تطورات أحداثها وتحولها إلى حلقة فى سلسلة الاضطهاد العثمانى (الإسلامى) ضد الأرمن. ويُمكن رصد وضعية الأرمن أثناء مظاهرات ثورة ١٩١٩ على موجتين : الأولى إبان مظاهرات مارس، والثانية خلال مظاهرات أبريل.

بالنسبة لموجة مظاهرات مارس ١٩١٩، وردت أول إشارة تتعلق بالأرمن فى جريدة « وادى النيل » بعد أقل من أسبوع على نشوب الثورة : «ومن الحوادث التى تدعو للأسف أن بعض رعاع اليهود والأرمن أطلقوا النار على بعض الوطنيين فأُصيب رجال منهم بالعاصمة»[٢]. ولم يقتصر إطلاق النيران آنذاك على «رعاع اليهود والأرمن» فقط ، بل امتدت إلى اليونانيين أيضاً. ففى مظاهرات ١٧ مارس أطلق يونانى النار على طالب كان يحمل علماً فأرداه قتيلاً[٣]. وقد تزامن إطلاق النار مع اقتحام العوام المصريين صفوف المظاهرات السلمية وتحويل مسارها إلى النهب والسلب والاعتداء على الغرباء[٤].

وهكذا، يُلاحظ أن ظاهرة فتح النار على المتظاهرين المصريين لم تكن حبيسة فى رعاع الجالية الأرمنية فقط، بل امتدت إلى رعاع اليهود واليونانيين. وربما كان مبعثها الدفاع عن النفس ضد اعتداءات العامة أو بغرض تخويفهم بعد أن ازدادت أعدادهم وتوسّعت نشاطاتهم التخريبية . وحتئذٍ، لم تُسبب هذه الإرهاصات العدائية بين الرعاع من الطرفين فى اضطهاد عنصر بعينه، بل شملت الاعتداءات كافة العناصر الأجنبية. وبخصوص الأرمن، يُؤكد المطران توركوم فى تقريره بأنه «حتى ذلك الوقت لم يلحظ فى هذه الحركة أية تحركات ضد الأرمن».

ولكن منذ ٢٠ مارس - وطبقاً لتقرير المطران - ظهرت «فجأة أخبار ومقالات مثيرة فى الجرائد المحلية (المنبر والأخبار والأفكار) تُفيد بأن المتظاهرين عندما كانوا يمرون أمام مطرانية الأرمن (بين السورين) واجهوا مقاومة مسلحة ورُدوا عن طريقهم بالإضافة إلى إطلاق النيران على الغوغاء من بعض المنازل الأرمنية وأقاويل مغرضة من هذا القبيل». وبسرعة، رفعت المطرانية شكواها إلى وزارة الداخلية ضد هذه الجرائد. وفعلاً، قررت الرقابة «اتخاذ الوسائل اللازمة حتى لا تُنشر بعدئذ مقالات فى الصحافة المحلية تكون ذات طبيعة مثيرة للمشاعر ضد الأرمن فى مصر»[٥].

ولم يترتب على هذه الأخبار وتلك المقالات «المثيرة ضد الأرمن» أية ردود فعل جماعية عنيفة ضدهم فى الشارع المصرى بالعاصمة أو الثغر. ولكن الأقلية الأرمنية الضئيلة بأسيوط تعرضت ضمن من تعرضوا للسلب والنهب فى أواخر مارس : «... وقد وردت الأنباء بأن مدينة أسيوط أُصيبت بخسارة كبيرة بسبب أعمال النهب. ووقع الاختيار بصفة خاصة على حوانيت الأقباط والأرمن...»[٦].

وهكذا، يُلاحظ أن وضعية أرمن مصر إبان مظاهرات مارس ١٩١٩ قد اتسمت بالارتياب من جراء تطورات الأحداث. وقد وقعت خلالها بعض

المناوشات الفردية بين «رعاع» الأرمن والمصريين، ولكنها لم تقد إلى ردود عنيفة. وحتى ذلك الحين، لم نلمس أى دور للاحتلال فى تأجيج الفتنة بين الأرمن والمصريين.

أما بالنسبة لموجة مظاهرات أبريل ١٩١٩، فقد بدأت فى ٣ أبريل بحادثة إطلاق أرمنى يُسمى أرتين آبكاريان «رعية عثمانى، حماية إنجليزى» النار على المتظاهرين فى ميدان عابدين بالقاهرة. وتتفق جميع المصادر التى عالجت ثورة ١٩١٩ على هذه الحادثة[٧]. ورغم فرديتها وخلفية دوافعها العثمانية - الإنجليزية الواضحة، إلا أنها كانت بمثابة الشرارة الأولى لتأزم العلاقات بين المصريين والأرمن وقتئذٍ ودخولها فى منعطف جد خطير. وطبيعياً ، بدأت أحداث العنف ضد الأرمن منذئذٍ فى دائرة عابدين التى وقعت فيها الحادثة الآنفة. ولذا، التمس فى اليوم التالى مباشرة بعض الأرمن قاطنى عابدين من مطرانية الأرمن الأرثوذكس أن تطلب من السلطات العليا حمايتهم «من همجية واشتطاط العنصر العربى (المصريين)»[٨].

كما خلقت هذه الحادثة، تحديداً، مناخاً ملائماً لترويج الإشاعات ضد الأرمن ومناخاً أفضل لقبولها. ففى أثناء المظاهرات، بينما كان الجنود الإنجليز يُطلقون النيران على المتظاهرين، كانت «بعض العناصر» تُمرّر إشاعات ، فى لحظة إثارة مثالية، مفادها أن الجنود الذين يُطلقون النيران على المتظاهرين بينهم مرتزقة من الأرمن المصريين جنّدتهم السلطات البريطانية لقتل المصريين. وقد انتشرت هذه الإشاعات بسرعة لافتة للنظر بين معظم فئات الشعب المصرى « الثائر » . وفى إطار هذا المناخ ، اندفعت الجموع الغاضبة ، وأكثرها من العوام، تُهاجم الأرمن وممتلكاتهم بشراسة وضراوة فى العاصمة والثغر وبعض الأقاليم.

رغم وقوع حوادث العنف ضد الأرمن فى الإسكندرية وطنطا والفيوم والمنيا وغيرها، إلا أنها لم تكن بثقلية العنف ضدهم فى القاهرة. إذ تلاحقت الأحداث

بصورة خطيرة وتضاعفت حدة هجمات العوام على الأرمن بعد أقل من خمسة أيام على حادثة عابدين . وخرجت أحداث العنف من نطاق عابدين إلى معظم أحياء القاهرة المأهولة بالأرمن. وشهد يوما ٨ - ٩ أبريل أعنف موجات العنف ضد الأرمن وأكبر قدر من خسائرهم (١٨ قتيلاً و ١٩ جريحاً). ويصف المطران توركوم كوشاجيان هذه الأحداث فى تقريره قائلاً : «... إن ولع عدد لا حدود له من السوقة العاديين والمتطرفين والثائرين بدون أى معنى، لم يكن ممكناً أن يظل فى وضع سلام . فها هى أحداث العنف المتوقعة قد بدأت فى ٨ أبريل. فتأسيساً على اتهام كاذب تماماً بأن الأرمن فتحوا النيران على الجموع، هاجم الغوغاء منازل الأرمن ومحلاتهم ونهبوا محتوياتها وجرجروا الأرمن فى الشوارع ببشاعة تحت ضربات الشوم ...» . ويُؤكد أحمد شفيق توصيف المطران بقوله : «... فوقعت على الطريق وفى وسط الميادين مظاهر تقشعر منها الأبدان وتطير لها الأفئدة. ولم تُغنِ نصائح الناصحين ولا إرشادات المرشدين عن غضب الشعب فتيلاً...»[٩]. كما زادت الصحافة المعاصرة من مصداقية هذا التوصيف: «... وكان الاعتداء الذى قام به الرعاع المسلحون بالسكاكين والمدى والبلط معظمه موجهاً ضد السكان من الأرمن...»[١٠].

أحدثت وقائع يومىّ ٨-٩ أبريل هلعاً شديداً فى نفوس الأرمن وطوَّفت بمخيلتهم ذكريات الدولة العثمانية الدموية الأليمة. ولذا، لجأ كثير منهم إلى أفنية مطرانيتىّ الأرمن الأرثوذكس والكاثوليك ومدرستىّ كالوسديان الأهلية وطاشچيان الخاصة. كما أن سكان المنزل الواحد من المستأجرين الأوربيين أو المصريين أو الشوام بدأوا يُرغمون الأرمن على ترك منازلهم خوفاً من هجمات العوام. ولهذا، اكتظت بهم الأماكن الآنفة عن آخرها. أما الأرمن المقتدرون مادياً، فقد انتقلوا إلى الفنادق الكبرى أو إلى منازل مأمونة فى الأحياء الأوربية أو رحلوا إلى مدينة مصر الجديدة المنشأة حديثاً آنئذٍ.

وحسب تقدير «الاتحاد القومى الأرمنى» ، بلغ إجمالى الخسائر الأرمنية البشرية «٦٠» قتيلاً، منهم «٢٠» شخصاً تعرَّف عليهم ذووهم وأقاربهم. أما الـ«٤٠» الباقون، فلم تُعرف هويتهم حيث كانوا من الأيتام. كما بلغ عدد الجرحى «٢٥» فرداً تلقوا إصابات بالغة وخطيرة وعاهات مستديمة. ناهيك عن الذين تعرضوا للإهانات والسباب والمعاملة المشينة. أما الخسائر المادية، فقد تعرَّض أكثر من «٥٥٠» منزل ومحل تجارى «مملوكين» للأرمن إلى السلب والنهب والتحطيم وسرقة مقتنياتها الثمينة والسندات والجواهر والنقود والأثاثات.

جدير بالذكر أن بعض المؤرخين الأرمن قد بالغوا فى وصف أحداث العنف ضد الأرمن بمصر ناعتين إياها بأنها «مذبحة جديدة»[١١]. بيد أننا إذا قلبنا الصورة على وجهها المصرى، نلاحظ وقوع ما ينيف على ثلاثة آلاف قتيلاً - رغم صعوبة الحصر - من المصريين من الجنسين على مختلف الأعمار والفئات إبان حوادث الثورة على أيدى قوات الاحتلال فضلاً عن الجرحى وذوى العاهات المستديمة والتنكيل والتعذيب فى السجون والمعتقلات . وبمقارنة بسيطة بين ضحايا وخسائر الفريقين تبدو مبالغات المؤرخين الأرمن[١٢].

على أية حال ، ثمة تساؤل يطرح نفسه عن ماهية «القوة» التى أشاعت بين المتظاهرين المصريين مسألة «خيانة الأرمن» فى هذا التوقيت بالذات ؟ ولمصلحة مَنْ ما حدث ؟ لم تتفق مصادر تاريخ ثورة ١٩١٩ والدراسات التى عالجتها على «القوة» التى سببت وقوع أحداث العنف آنفة الذكر ضد الأرمن . وثمة سيناريوهات مطروحة للإجابة على هذه الإشكالية . إذ يشير أولون إلى الإنجليز ، ويرجح ثانون التيار الإسلامى «المتعصب» ضد الأرمن «أعداء الخلافة الإسلامية العثمانية» ، ويومىء ثالثون إلى اليهود الذين خشوا على أنفسهم من طوفان المتظاهرين فأوشوا بالأرمن ، ويعزو رابعون سلوك العنف ضد الأرمن إلى حالة الحرمان والكبت والقهر التى انتابت معظم قطاعات الشعب المصرى

إثر توجيه الاحتلال لموارد البلاد صوب المجهود الحربى خلال الحرب العالمية الأولى ... إلخ.

وهكذا ، لا يوجد دليل قاطع على «القوة» التى أدت إلى تأزم العلاقة بين المصريين والأرمن . وحتى المصادر الأرمنية لم تُقدم دليلاً قاطعاً على القوة الفاعلة فى توتير المشهد المصرى - الأرمنى . إذ لم يشر تقرير «المطران» لا من قريب ولا من بعيد إلى هذه القوة واقتصر على توصيف ما حدث دون تفسيره. أما تقرير «الاتحاد القومى الأرمنى» ، فقد طرح عدة سيناريوهات لتلك القوة الفاعلة وقدم تفسيرات «منطقية» ولكنها ليست جامعة مانعة . ولعل التفسير الأقرب إلى القبول - دون الإقناع - ويتماشى مع الوضع الأرمنى العام وقتئذٍ يُمكن اختزاله فيما يلى : أراد عملاء تركيا الفتاة الانتقام من أرمن مصر لأنهم يتبنون آنذاك الدفاع عن القضية الأرمنية ضد الدولة العثمانية فى مؤتمر الصلح بباريس ، ولذا ، اندسوا بين صفوف المتظاهرين مستغلين حادثة ٣ أبريل الفردية بعابدين، وأوشوا لدى المتظاهرين الثائرين - فى لحظة انفعالية حرجة- بأن الأرمن عملاء الإنجليز «الخونة ناكرى الجميل» يُطلقون النيران عليهم. فما كان من الجماهير المثارة إلا أن ازدادت حدة إثارتها واندفعوا يضربون ويسلبون ويُعربدون .

وقد تمخض عن هذه الأحداث ، تكدس آلاف الأرمن المرتجفين - من تكرار المذبحة العثمانية - فى ساحات الكنائس والمدارس والشوارع المحيطة بهم. وبناءً على إلحاح مطران أرمن مصر، وُضعت الأماكن الآنفة تحت حراسة السلطات العسكرية البريطانية. ومنذئذٍ، بدأت السلطات الاحتلالية فى استثمار واغتنام هذه الفرصة السهلة التى ربما دبرها عملاء تركيا الفتاة ونفذها المتظاهرون المتهورون.

اكتفت السلطات العسكرية فى البداية بوضع تجمعات الأرمن تحت

حراستها[١٣]. ولكن ذلك زاد من إثارة المتظاهرين وفوراناتهم مما عَمَّقَ الفزع فى نفوس الأرمن. كما أدى تكديسهم بكثرة فى أماكن ضيقة إلى انتشار الأوبئة بينهم. ولهذا، قامت السلطات العسكرية بناءً على توصية الإدارة الصحية وطلب المطران بنقل الأرمن اللاجئين فى ١٧ أبريل ١٩١٩ إلى مخيم أمام معسكر الجيش الإنجليزى بالعباسية. وفى ٢٠ أبريل تم نقلهم إلى مخيم آخر أُعد خصيصاً لهم فى ساحة سباق الخيل بمصر الجديدة (المريلاند). وبذلك تأسس «المخيم البريطانى للأرمن اللاجئين بمصر الجديدة»، الذى تكوَّن من «٤٩١» خيمة وبلغ تعداده «٣٧٣٠» نسمة فى ٢٩ أبريل ١٩١٩.

وقد أثنى أحمد شفيق على هذه الخطوة البريطانية بقوله : « ولقد كادت نيران هذه الفتنة تشتعل فتلتهم ما حولها لولا أن أخذت السلطة العسكرية هذه الفئة تحت حمايتها وآوت أفرادها فى القلعة وفى معسكرات مصر الجديدة تحت حراستها»[١٤]. ولكن كانت هذه الحماية صورية فقط ، إذ وقع العبء الأكبر على مطرانية الأرمن الأرثوذكس والاتحاد القومى الأرمنى والاتحاد الخيرى الأرمنى العام والصليب الأحمر الأرمنى[١٥]. وبنقل الأرمن «المضطهدين» إلى مخيم مصر الجديدة تحت «الحماية الصورية» لقوات الاحتلال، نجحت بريطانيا فى قلب المائدة وتقديم «صورة بدون تعليق» أمام المؤتمرين بباريس. وراح الساسة البريطانيون يستشهدون بأحداث العنف الدموية ضد الأرمن ليُقنعوا العالم بأن يوم استقلال مصر لم يحن بعد[١٦].

وبخلاف التوظيف البريطانى ، أبرقت وكالات الأنباء العالمية إلى جميع الأنحاء أخبار «المخيم الأرمنى الناجم عن اعتداءات المصريين الوحشية وغير المنطقية». وبذلك ، فسّرها الرأى العام الأوربى - الأمريكى بأنها «موجة من الاعتداءات التى تُعبر عما فى نفوس المصريين من كراهية كامنة للأجانب». كما وصف المصريين بأنهم «أُناس يُريدون أن ينالوا استقلالهم على أشلاء أمة أخرى نجت بقاياها بصعوبة شديدة من وحشية الأتراك والأكراد»[١٧].

وإزاء هذه الصورة التى كوّنها الرأى العام عن المصريين، أبرق الوطنيون المصريون رسالة إلى مؤتمر الصلح بخصوص الأرمن جاء فيها: «إن المصريين جميعاً قد تم تجريدهم من السلاح. فمن العجب والشئ الذى لا يُمكن تفسيره هو أن الأرمن كانوا يستحوزون على أسلحة ... ومن السهل التخيل إثارة مشاعر المتظاهرين ضد الأرمن عندما يكونوا مسلحين ضدهم. وجدير بالذكر أن استخدام الأرمن للأسلحة كان يتزامن مع حضور القوات البريطانية برشاشاتهم إلى أماكن المظاهرات لكبح جماحها. وعندما وقعت أحداث قتل، لذا، وجب أحقية الدفاع عن النفس. وربما خلط المتظاهرون الثائرون بين الجانى الحقيقى والمظلوم. ولكن ثمة شئ واضح خلاصته أن سلوك المتظاهرين نبع من رد فعل لأن الشعب المصرى لا يُكن أبداً أية عداوات للأرمن...»[١٨].

ومهما يكن من أمر، فقد أدرك الرأى العام المصرى حجم الخطأ الذى ارتكبه المتظاهرون المتعصبون ضد الأرمن ونتائجه السيئة على القضية المصرية. ومن ثم ، بدأت محاولات النخبة المصرية بلسمة الجروح الأرمنية منذ اليوم التالى لأحداث العنف ، أى منذ ١٠ أبريل ، حتى نقل الأرمن اللاجئين من أفنية الكنائس والمدارس إلى مخيم مصر الجديدة فى ٢٠ أبريل. بيد أن هذه المحاولات لم تُسفر إلا عن تحول العامة من الاعتداءات الدامية ضد الأرمن إلى الاكتفاء بالسلب والنهب. ولذا، فى ظل هذا المناخ القلق، آثر الأرمن منذ ٢٠ أبريل ١٩١٩ الإيواء إلى المخيم البريطانى والاحتماء به. وغدا هذا المخيم دليلاً بريطانياً أمام العالمين على عدم أهلية المصريين فى الحصول على استقلالهم. كما أضحى فى الوقت ذاته نقطة مريرة فى حلق الوفد المصرى بباريس. ومن ثم، بات على الدوائر الوطنية والسياسية المصرية تسوية هذه الأزمة لصالح القضية المصرية، وهو ما سعت إليه هذه الدوائر خلال العشر الأواخر من أبريل ١٩١٩.

رأت لجنة الوفد المركزية أن من «المصلحة عدم اتساع هذا الحزن والعمل على مداواة هذا الجرح بالحسنى» . وقد أوكلت هذه المهمة إلى إبراهيم بك الهلباوى المحامى والدكتور محجوب بك ثابت والأستاذ توفيق دوس باشا . واشترك معهم لفيف من رجال الحزب الوطنى ومشايخ الأزهر ومحامون وأطباء. وبذا، تشكّل فريق «الوفد المصرى للتفاوض مع الأرمن »[١٩].

التقى الوفد المصرى مع الاتحاد القومى الأرمنى بصفته المسئول الرسمى عن قضية أحداث الثورة لإنهاء ما أُطلق عليه « سوء التفاهم » بسرعة. وقد أراد الوفد المصرى الوصول بالمفاوضات إلى نتيجة وسطية استرضائية توفيقية مُؤداها أن « بعض الأرمن قد اشتركوا فعلاً مع الإنجليز فى إطلاق النار . ولكن المصريين أخطأوا خطأً فادحاً بتعميم مشاعر الغضب على جميع الأرمن ». ويؤكد تقرير المطران ذات المعنى . وبناءً على افتراض الوفد المصرى قبول الاتحاد الأرمنى لهذه النتيجة، فقد طالب بالآتى حسبما ورد فى الوثيقتين اللتين بصدد الحديث عنهما :

أولاً : إعادة جميع الأرمن المحتمين بالمخيم البريطانى بمصر الجديدة إلى ديارهم ومحالهم.

ثانياً: التقاط الصور التذكارية التى تجمع بين الجانبين وإرسالها إلى جميع الصحف ووكالات الأنباء العالمية لتكذيب الاحتلال الذى اتهم المصريين بالعنصرية وحمى كراهية الأجانب.

ثالثاً: انضمام الأرمن إلى صفوف المصريين للمطالبة بجلاء الإنجليز عن مصر.

رابعاً: المطالبة، مع المصريين، بإسناد مهمة حفظ الأمن والنظام إلى الشرطة المصرية بمشاركة قوة من الشرطة الدولية يُوافق عليها الشعب المصرى. وفى المقابل، يضمن الأعيان المصريون أمن أرواح الأرمن وممتلكاتهم بوضع أبنائهم رهائن فى أيدى الأرمن.

أوقعت هذه المطالب «الاتحاد القومى الأرمنى» فى مأزق جد حرج بين المصريين الذين يعيشون بين ظهرانييهم، وسلطات الاحتلال التى نجحت فى تطويق أعناق الأرمن بـ «جميل» أحالهم أسرى له. بيد أن الاتحاد القومى قد أنهى حيرته برفض المطالب السالفة والاشتراك فى الدعاية ضد الإنجليز « الذين يعيش الأرمن تحت حمايتهم ».

وهكذا، فشلت جميع الجهود المصرية الساعية إلى إعادة أرمن المخيم البريطانى بمصر الجديدة إلى ديارهم خاصة وأنه قد مرت فترة وجيزة جداً على الأحداث العنيفة ضدهم التى ولّدت فيهم خوفاً سيكوباتياً ومشاعر مرتابة بعمق إزاء المصريين. وقرر الاتحاد القومى بأن مسئولية « إبقاء أو إنهاء » المخيم فى أيدى السلطات البريطانية. كما أصدرت المطرانية الأرمنية - نيابة عن الأرمن - بياناً فى ٢٤ أبريل ١٩١٩ أنكروا فيه اشتراكهم مع المصريين فى المطالبة بالاستقلال والجلاء . وأبرقت إلى بوغوص نوبار باشا رئيس الوفد القومى الأرمنى بباريس رسائل يعترفون فيها بالحماية التى قدمتها لهم الجيوش البريطانية[٢٠].

وبحلول مايو ١٩١٩، عندما لاحت فى الأفق إشارات استتباب السلام وإيقاف الإضرابات والمظاهرات، افتتح بعض الأرمن - خارج المخيم - متاجرهم تدريجياً، وخفّ الفزع بينهم نسبياً، ولكن أسبابه لم تُجتث من نفوسهم تماماً. وبدأ الاتحاد القومى الأرمنى منذ ٧ مايو فى مفاوضة السلطات العسكرية البريطانية لإعادة أرمن المخيم إلى منازلهم حتى تم تصفيته فى أواخر عام ١٩١٩ . وبذا ، انفض مخيم الأرمن بمصر الجديدة بعد أن حقق أهدافه البريطانية .

وتؤكد الوثيقتان قيد الدراسة أن أحداث أبريل ١٩١٩ وآثارها آنفة الذكر قد تمخضت عن تدشين مناخ مرتاب قلق بين الأرمن والمصريين عَبَّرَ عنه المطران كوشاجيان فى تقريره قائلاً : « ... ولكن مهما فعلنا، فإن هذه الحوادث قد أثّرت

تأثيراً كبيراً على وضع الأرمن وسمعتهم ... وأحدثت شقاقاً غير مرغوب فيه بيننا وبين أصدقائنا المصريين منذ عصور طويلة ». كما زادت هذه الأحداث من التقارب الأرمنى نحو الاحتلال ورغبتهم فى بقائه : « وليس لدينا أى شك فى أن الحكمة لن تنقص المصريين فى انتظار تنميتهم الحقيقية ورفاهتهم على أيدى الحماية البريطانية العادلة ».

ولتفسير الحالة الأرمنية أثناء ثورة ١٩١٩ يجب وضعها فى ضوء الاعتبارات التالية :

١ - سيطرة فكرة «العودة إلى الوطن» أو «الخروج من مصر» على العقل الجمعى الأرمنى واعتبار مصر وطناً «مؤقتاً أو مرحلياً» .

٢ - تركيز الأرمن ، باعتبارهم لاجئين أو غرباء ، على الكسب المادى فقط لتحسين مستواهم المعيشى .

٣ - توجيه الفكر السياسى والمجهود التعبوى الأرمنى صوب القضية الأرمنية والوطن الأم .

٤ - استنفاد طاقات الأرمن السياسية فى الصراعات الحزبية الضارية بينهم .

٥ - اعتماد الأرمن المصريين على بريطانيا - الدولة المحتلة لمصر - فى حل قضيتهم .

٦ - وجود علاقات اقتصادية وثيقة بين الأرمن والرأسمالية الأوربية لاسيما بريطانيا حيث أنهم كانوا ضمن همزات الوصل بين الإنتاج الأوربى والسوق المصرى .

الهوامش

(١) مكى الطيب شبيكة : بريطانيا وثورة ١٩١٩ المصرية ، معهد الدراسات والبحوث العربية ، القاهرة، ١٩٧٦ ، ص ٦٦ ، ٨٤ - ٨٦ .

(٢) وادى النيل : عدد ٢٨٨١، السبت ١٥ مارس ١٩١٩، ص ٢.

(٣) مكى الطيب شبيكة : المصدر السابق ، ص ٦٦، ٨٥.

(٤) الأهرام : عدد ١٢٧٤٩، الأحد ١٦ مارس ١٩١٩، ص ٢؛
المحروسة : عدد ٣٠٤٧، الإثنين ١٧ مارس ١٩١٩، ص١.

(٥) أرشيف مطرانية الأرمن الأرثوذكس بالقاهرة : محاضر جلسات مجلس الإدارة ، دفتر رقم ٢٦ ، جلسة رقم ٢٢ فى ٢٨ مارس ١٩١٩، موضوع رقم ١١، ص ٢٠٨ (بالأرمنية) .

(٦) المحروسة : عدد ٣٠٥٥، الخميس ٢٧ مارس ١٩١٩، ص٢؛
وادى النيل : عدد ٢٨٩٤، الجمعة ٢٨ مارس ١٩١٩، ص٢؛
الأمة : عدد ٢٣٨، السبت ٢٩ مارس ١٩١٩، ص ١.

(٧) من هذه المصادر على سبيل المثال :
عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩، الجزء الأول ، تاريخ مصر القومى من ١٩١٤-١٩٢١، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٣٢؛ عبد الرحمن فهمى : حوليات مصر السياسية، الجزء الأول، تحقيق : يونان لبيب رزق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٠٣؛ عفاف محمد خيرى : «شهداء القاهرة» ، منشوراً فى شهداء ثورة ١٩١٩، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٨٤، ص ٧٠؛ الأهرام : ٥٠ عاماً على ثورة ١٩١٩، مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٠٥ ؛ أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٢٦، ص ٣٠٧.

(٨) محاضر جلسات مجلس الإدارة : دفتر رقم ٢٦، جلسة رقم ٢٣ فى ٢٩ أبريل ١٩١٩، موضوع رقم ٧، ص ٢١٤ (بالأرمنية) .

(٩) أحمد شفيق : المصدر السابق، ص ٣٢٣.

(١٠) الأهرام : عدد ١٢٧٧٤، السبت ١٢ أبريل ١٩١٩، ص ٢؛
الوطن : عدد ٧٢٦٩، السبت ١٢ أبريل ١٩١٩، ص٢.

(١١) هوڤهانيس توبوزيان : تاريخ الجالية الأرمنية فى مصر ١٨٠٥ - ١٩٥٢ ، يريڤان ، ١٩٧٨ ، ص ٢٢٢ (بالأرمنية) .

(١٢) نبيل عبد الحميد سيد أحمد: «محاكمات ثورة ١٩١٩» ، منشوراً فى شهداء ثورة ١٩١٩، مصدر سابق، ص ص ١٦٢-٢٢٥.

(١٣) الوطن : عدد ٧١٧٢، الأربعاء ١٦ أبريل ١٩١٩، ص ٢.

(١٤) أحمد شفيق : المصدر السابق، ص ٣٢٣.

(١٥) تألفت إدارة المخيم من خمسة أقسام : قسم الطباخة، قسم الشرطة وحفظ النظام، قسم النظافة، قسم المستشفى ، قسم نقل المياه وتوزيعها.

(١٦) مكى الطيب شبيكة : المصدر السابق، ص ١١٩.

(١٧) نفسه ، ص ص ٨٤-٨٦ .

(١٨) Documents Diplomatiques Concernant L'Egypte, Paris, 1920, p.115.

(١٩) كلّفت لجنة الوفد المركزية أعضاء هذا الفريق أيضاً بالطواف على منازل أعيان الأرمن من محامين وأطباء وتجار لطمأنتهم على حياتهم وحريتهم ومصالحهم.
مذكرات إبراهيم الهلباوى : تاريخ حياة إبراهيم الهلباوى بك ١٨٥٨-١٩٤٠، تحقيق : عصام ضياء الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٢٥٥.

(٢٠) مكى الطيب شبيكة : المصدر السابق، ص ٨٧.